مدرسة الصوفية
التى يحتاجها المسلمون اليوم

للاستاذ أنور الجندى

ما أحوجنا نحن الذين نكافح فى سبيل بناء الوطن الإسلامى الكبير إلى صوفية عمر وعلى والحسن البصرى والحسين. ما أحوجنا إلى النفوس قد بلغت غاية السمو والكرامة والعزة حتى نستطيع أن نواصل الكفاح بقوة وعزيمة ماضية. نفوس قد فطمت عن الشهوات وترفعت عن الصغائر. وشامت على النزوات فحفظت كيانها الروحى والنفسى والعقلى قويا عاليا.

ولا تستطيع أى مدرسة فكرة أن تعطينا هذه القوة إلا مدرسة الصوفية. وقد أثبتت المدارس الفكرية الأخرى التى تقوم على المجاملة والمرونة واللباقة أنها لا تصلح أبدا لامة فى فترة كفاحها فى سبيل الحرية وبناء وطن كبير، ان هذه المدارس تخلق رجل الصالون الأنيق المجامل الذى لايستطيع أن يجهر بكلمة الحق. وهو فى العاده رجل غلبت عليه المطامع الدنيوية فهو يجامل ويتملق ويسمع ما يكره ويخفى أراءه الخاصة حتى لا يشتبك فى خصومه وبهذا يظل طوال حياته معه. ولعل هذا هو لون الشخصية التى فرضتها علينا فى الشرق الحضارة الغربية. وهو بعيد جدا عن مقومات شخصيتنا الإسلامية الأصيله. ومع الأسف فإننا قد مضينا شوطا مع هذه المدارس فأفقدتنا الحياة وماتت فى نفوسنا روح الجرأة والشجاعة الأدبية.

وما أحرانا وقد بدأنا نتحرر من الاستعمار والاستبداد. ونفشىء الحياة فى الشرق كله. ونعد المجتمع الإسلامى الموحد المتماسك القوى أن نعود إلى مدرسة الصوفية.

هذه المدرسة القائمة على قدرة النفس على قمع الشهوات ومقاومة

المطامع والبذل فى سبيل الفكرة والاستماتة فى سبيل العقيدة الصادقة .

ولذلك عرف المتصوفة بالجرأة والإيمان . ولا شك أن الإنتصارات التى بهرت ولا تزال تبهر المؤرخين الباحثين فى تاريخ الإسلام إنما هى ثمرة الصوفية الصادقة .

وتاريخ التصوف يفيض بأروع الأمثال وحسبنا قصة عيسى الغواص هذا الصوفى الذى كان يستطيع الغوص فى البحر من جانب فلا يظهر إلا فى الجانب الآخر .

كان المسلمون محاصرون فى عكا أيام الحرب مع الصليبيين . وكان الاتصال بينهم وبين المسلمون خارج الحصار قد انقطع بعد أن ضغط العدد عليهم ضغطاً شديدا ومن ثم أصبح من العسير ايصال المؤن والذخائر إلى الجماعة المحصورة . وكان لا بد من عبور مسافات طويلة فى الماء لتحقيق هذا الغرض .

وتطوع عيسى . كان يشد حول وسطه حزاما يحمل فيه كل ما يراد نقله من أموال أو رسائل أو غيرها من الأشياء الهامة . وقد ظل عيسى يقوم بهذه المهمة الشاقة مرات . كانت سفاراته بين الفريقين المحصورين غاية فى الأهمية والخطر ولم يكن هناك من يستطيع أن يؤدى مثل هذا الواجب فكانت عيون الجميع ترقبه وقلوبهم تخفق باسمه .

وذات ليلة أرسل صلاح الدين ثلاثة أكياس فيها ثلاثة آلاف جنيه من الذهب نفقة للمحاربين . وقد حملها عيسى ووضعها فى منطقه . وحمل الرسائل وغيرها وعام قاصداً الطرف الآخر من البحر . وكان من عادته أن يطلق حمامة زاجلة عندما يدخل عكا . ووصلت الحمامة مؤذنة بأن عيسى فى الطريق . ولكن دون جدوى فإن عيسى لم يصل .

وبعد أيام قذف البحر غريقا هو عيسى الغواص . وقد وجدت أكياس الذهب الثلاثة مشدودة على بطنه والرسائل معها . وكأنما أراد هذا الشاب الصوفى المجاهد أن يؤدى الأمانة ميتا بعد أن أداها حيا .

* * *

وفى الجانب الآخر ترى الصوفية هم أجرأ الناس فى قول كلمة الحق . يجبهون بها الأمراء والزعماء والحكام لايبالون الجزاء . فقد هانت الحياة

عليهم واستحفوا بزخرفها وانمحت من قلوبهم مطامعها فلم يعد يخيفهم الحرمان منها وكانوا يرددون مع الصوفى القديم « . . أن قتلى شهادة . وسجنى خلوه . وتغريبى سياحة »

والتاريخ يذكر شعيبا والفضيل بن عياض وعطاء وأبى حازم وابن السماك وعمارة بن حمزة والأوزاعى بأنهم كانوا زهاداً وصوفية . وقفوا موقف الجرأة فى تذكير الخلفاء بعيوبهم وأخطائهم . ورفضوا ما يقدم لهم من اعطيات أو هدايا

فاذا أضفنا إلى هذا ذلك الكفاح الضخم فى سبيل العلم الذى قام به أمثال الشافعى والغزالى والبخارى لم نعجب . فإن الصوفية الخالصة هى التى كانت تجعل هؤلاء أعلامه وغيرهم يستعذبون الكفاح والجهاد وتحمل المشاق فى سبيل الفكرة الخالصة المجردة من المطامع الدنيوية أو الجزاء العاجل .

وقصة البخارى من أروع قصص طلب العلم والجهاد فى سبيله . فقد امضى اكثر من عشرين عاما . وهو مسافر يتنقل فى الامصار الإسلامية يستمع إلى العلماء وينقل منهم ويتحدث إليهم ويحقق ما لديهم من حديث رسول الله . وكان السفر إذ ذاك غاية فى المشقة .

وقد اتاح له هذا أن يجمع اكثر من سبعين ألف حديث ، واستمع إلى اكثر من ألف شيخ من الذين يحفظون الحديث . يجد مع الواحد منهم حديثاً أو حديثين . ثم يسجل هذا كله . ويعود فيقارن بينه ويمحصه ويدرس قوة الرواة والتسلل ليصفى هذا كله إلى ستة آلاف حديث .

ومن مواقف التصوف الباهرة التى تجل عن الوصف ما احتمله ابن حنبل وابن تيمية فى سبيل الرأى .

ولسنا نستطيع أن ننسى هنا اولئك الجنود المجهولين الذين لم يذكر التاريخ اسمهم والذين قاموا بدور ضخم فى سبيل تحقيق انتصارات الاسلام وفتوحه . كان هؤلاء جميعا صوفية فى ظل المعنى الذى رسمناه للتصوف الخالص .

فلولا هذا الإيمان العميق ما استعذبوا الجهاد والنضال والبذل والتضحية ولتخلفوا فى بلادهم يعيشون حياة طيبة . ولكنها الصوفية الصادقة هى التى دفعتهم إلى استعذاب الجهاد والحرص على الموت والاستشهاد فى سبيل المبدأ والغاية .

وبهذه الروح الصوفية اندفعوا فى انحاء الجزيرة إلى أطرافها شرقا وغربا يغزون الروم وفارس فى عنفوانهما فدانتا لهم وخلف الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض إلى حدود القسطنطينية ثم اقتحامهم افريقيا إلى مصر والمغرب والأندلس .

ثم فتحوا الهند وما وراء النهر وجنوبى فرنسا وايطاليا وهذه الانتصارات التى سجلها المسلمون فى اليرموك ودمشق واجنادين كلها انتصارات صوفية . وهؤلاء الذين دفعوا التتار والصليبيين عن بيت المقدس والمنصورة ودمياط وعين جالوت كانوا صوفية .

وأولئك الذين وصلوا إلى أسوار فينا وإلى نهر اللوا ، كانوا صوفية فى حدود فهى للصوفية الحقة .

* * *

ونحن اليوم فى حاجة إلى موجة من هذه الصوفية . الصوفية المقتحمة لا المنطوية . رياضة النفس عندها بالعمل لا بالسلبيه . عمادها مقاومة مطامع الدنيا ونحن فى قلب المعركة وليس ونحن جانحين إلى الإعتكاف. فليس هناك رهبانا فى الإسلام ولا انقطاع عن الدنيا .

والتصوف كما افهمه يهدف إلى القصد من متاع الدنيا رجاء متاع الآخرة . ويهدف إلى نفض اليد من البريق وشغل القلب عن المتاع فى سبيل المعانى العليا .

ولست أشك فى أن نظام الفروسية الذى اقتبسه الفرنجة من الشرق أيام الحروب الصليبية هو نظام صوفى يقوم على الشجاعة والمروءة والفتوة والكرم. وهو يهدف فى جملته إلى أن يجرد نفسه فى سبيل الأمة فيعيش للجماعة ويعيش للفكرة ويعيش للمثل الأعلى

وبعد أيها السادة فأننا نمر فى تاريخ الشرق الإسلامى بمرحلة الغروب وهى تقتضينا أن نكون جميعا جنوداً قد أعدوا أنفسهم لاحتمال أعباء كفاح ضخم طويل المدى . ومن شان هذا الكفاح أن تكون له ركيزة فى أعماق النفس ولن تكون هذه الركيزة الا إعداد نفوسنا بالتربية الروحية ، هذه التربية التى تتطلب صلابة النفس وقوة الإحتمال والقدرة على مواجهة الخطوب ولن يتيسر هذا للشباب إلا بالتصوف الصادق .

نريد ذلك التصوف الذى تحسن النفس فيه بالقوة أمام غزوات الأعداء. والإستعلاء أمام الملذات والشهوات هذا التصوف الذى يحررنا من اغراء الترف والجنس والمادة . ويدفعنا فى الحياة كراما نعمل ونجاهد ونواجه الخطوب فى سبيل غاية عليا . هى من صميم الأمانة التى حملها الحق جل وعلا للانسان بعد أن ناءت بها الجبال .

كلمات فى التصـــوف

● يقول الامام الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن بالجهاد وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات ، الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا من اقتفى أثر الرسول عليه السلام .

● ويقول ابن دينار: إياك أن تطمع فى الأنس بالله،وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع فى حب الله وأنت تحب المنزلة عند الناس .

● وسئل البسطامى يوما : بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : بقلب خاشع ، وفكر ساجد ، ومراقبة لا تغفل ، وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

● ويقول أبو الفتح البستى : من أصلح فاسده أرغم حاسده ، عادات السادات ، سادات العادات ، من أطاع غضبه ، أضاع أدبه ، رضى المرء عن نفسه ، دليل تخلفه ونقصه ، ربما كانت العطية امتحان ، والحرمان نجاة .

● يقول أبو سليمان الدارانى : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله .

● وقال ابن سالم : الإيمان أربعة أركان : ركن منه الإيمان بالقدر ، وركن منه الإستعانة بالله عز وجل .

● وذكر عند سهل بن عبد الله التسترى الكرامات ، فقال : وما الآيات وما الكرامات شىء تنقضى لوقتها ، ولكن اكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك ، بخلق محمود .